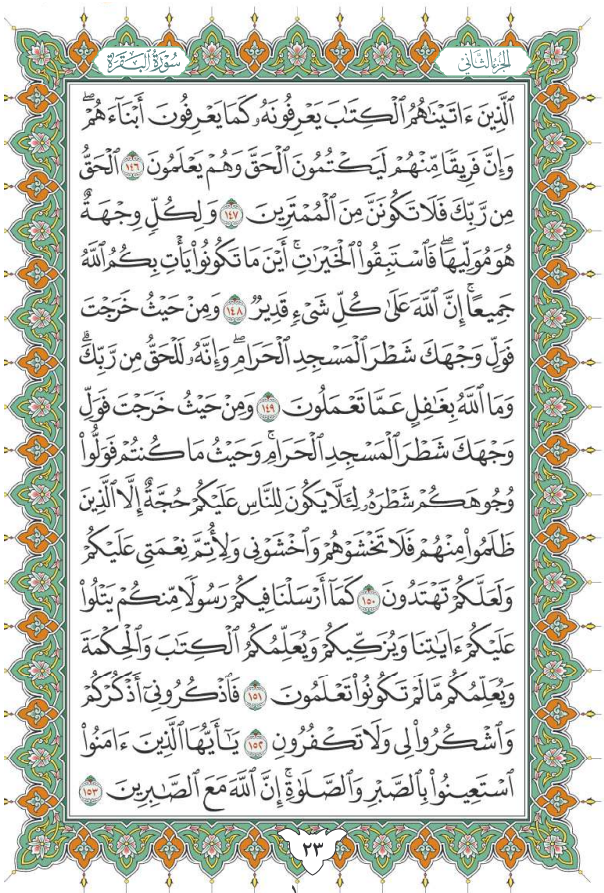

﴿١٤٦﴾ - وإنّ أهل الكتاب ليعلمون أنّ التّحول إلى قبلة البيت الحرام بمكّة هو الحقّ، ويسلّمون أنّك النّبيّ المنعوت في كتبهم بنعوت، من جملتها أنّه يصلّي إلى الكعبة، ومعرفتهم نُبُوّتك وقبلتك كمعرفتهم أبناءهم في الوضوح والجلاء، ولكنّ بعضهم يخفون هذا الحقّ على علم اتّباعًا لهواهم، وتعصّبًا باطلًا لملّتهم حفاظًا على سلطانهم، ويحاولون تضليلكم.

﴿١٤٧﴾ - إنّ ما أنت عليه يا محمّد هو الحقّ من ربّك، لا ما يضلّل به أهل الكتاب، فكونوا على يقين منه، ولا تكونوا من أهل الشّكّ والتّردّد، ومن ذلك الحقّ أمرُ تحوّل القبلة إلى البيت الحرام فامضوا عليه ولا تبالوا بالمعارضين..

﴿١٤٨﴾ - إنّ هذه القبلة التي حوّلناك إليها هي قبلتك وقبلة أمّتك، وكذلك لكلّ أمّة قبلة تتّجه إليها في صلاتها حسب شريعتها السّابقة، وليس في ذلك شيء من التّفاضل، وإنّما التّفاضل في فعل الطّاعات وعمل الخيرات، فسارعوا إلى الخيرات وتنافسوا فيها، وسيحاسبكم الله على ذلك، فإنّه سيجمعكم يوم القيامة من أيّ موضع كنتم، ولن يفلت منه أحد، وبيده كلّ شيء بما في ذلك الإماتة والإحياء والبعث والنّشور.

﴿١٤٩﴾ - فَاسْتقْبل يا محمّد ومن اتّبعك المسجد الحرام في صلاتك من كلّ مكان كنت فيه، سواء كان ذلك في حال إقامتك أم في حال سفرك وخروجك من مكان إقامتك، وإنّ هذا لهو الحقّ الموافق لحكمة ربّك الرّفيق بك، فاحرص عليه أنت وأمّتك، فإنّ الله سيجازيكم أحسن الجزاء، والله عالم علمًا لا يخفى عليه شيء من عملكم.

﴿١٥٠﴾ - والتزم أمر الله في القبلة واحرص عليه أنت وأمّتك، فاجعل وجهك في ناحية المسجد الحرام من كلّ مكان خرجت إليه في أسفارك، واستقبلوه حيثما كنتم من أقطار الأرض مسافرين أو مقيمين، لينقطع ما يحاجّكم به المخالفون ويجادلونكم به، وإذا لم تمتثلوا لأمر هذا التّحويل فسيقول اليهود: كيف يصلّي محمّد إلى بيت المقدس، والنّبيّ المنعوت في كتبنا من أوصافه التّحوّل إلى الكعبة؟ وسيقول المشركون العرب كيف يدّعي ملّة إبراهيم ويخالف قبلته؟ على أنّ الظالمين الزّائغين عن الحقّ من الجانبين لن ينقطع جدالهم وضلالهم، بل سيقولون: ما تحوّل إلى الكعبة إلا مَيْلًا إلى دين قومه وحبًّا لبلده، فلا تبالوا بهم فإنّ مطاعنهم لا تضرّكم، وَاخْشَوْنِ فلا تخالفوا أمري، وقد أردنا بهذا الأمر أن نتمّ النّعمة عليكم وأن تكون هذه القبلة التي وجّهناكم إليها أدعى إلى ثباتكم على الهداية والتّوفيق.

﴿١٥١﴾ -وإنّ توجيهكم إلى المسجد الحرام بإرسالنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم الآيات من إتمام نعمتنا عليكم، كما أتممنا عليكم النّعمة- القرآن- ويطهّر نفوسكم عمليًّا من دنس الشّرك وسيّئ الأخلاق والعادات، ويكمّلكم علميًّا بمعارف القرآن والعلوم النّافعة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون، فقد كنتم في جاهليّة جهلاء وضلالة عمياء.

﴿١٥٢﴾ -فاذكروني -أيّها المؤمنون- بالطّاعة أذكركم بالثّواب، واشكروا لي ما أسبغت عليكم من النّعم ولا تجحدوا هذه النّعم بعصيان ما أمرتكم به.

﴿١٥٣﴾ - واستعينوا أيّها المؤمنون في كلّ ما تأتون وما تذرون بالصّبر على الأمور الشّاقة والصّلاة التي هي أمّ العبادات، إنّ الله بقدرته القاهرة مع الصّابرين فهو وليّهم وناصرهم.

الآيات من 148 - 152

الاختلاف في القبلة وأسباب تحويلها

لِكلٍّ وجهةٌ هو موليها فاذكروا الله يذكُركم

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة: لمّا ذكر القبلة التي أمر المسلمين بالتّوجه إليها وهي الكعبة، وذكر تصميم أهل الكتاب على عدم اتّباعها، أعلم أنّ ذلك هو بفعله، وأنّه هو المقدّر له، وأنّه هو موجّه كلّ منهم إلى قبلته، ففيه تنبيه على شكر الله إذ وفّق المسلمين إلى اتّباع ما أمر به من التّوجّه إليه، واختيارهم له.

وكما أنّ للكعبة أربع جهات يتقبّل الله من عبده العمل الصّالح من أيّ جهة ولّى وجهه، كذلك كان للفقه أربعة مذاهب، والطرق الموصلة إلى الله أربع: الطّريقة الرّفاعيّة المنسوبة إلى سيّدي أحمد الرّفاعي، والطّريقة القادريّة المنسوبة إلى سيّدي عبد القادر الجيلانيّ، والطّريقة المنسوبة إلى سيّدي أحمد البدويّ، والرّابعة المنسوبة إلى سيّدي إبراهيم الدّسوقيّ.

المعنى العام

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ولكلّ فريق من المسلمين جهة من الكعبة يستقبلها ويولّيها وجهه أينما كان وحيثما حلّ، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فأكثروا من الصّلوات، واستبقوا الخيرات قبل هجوم هادم اللّذّات- الموت-، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ في مشارق الأرض ومغاربها، ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾ يأتكم الممات، ويأت بكم إلى المحشر حفاة عراة، ولا

ينفعكم حينئذ إلّا صالح عمل قدّمتوه، أو فعل خير أسلفتموه، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه بعث العباد، ولا جمعهم من أعماق الأرض وأقطار البلاد. فهو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم. وإذا علمت أنّ لكلّ قوم جهة يستقبلونها، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فمن حيث خرجت وفي أيّ مكان حللت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، والله ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فبادر إلى امتثال أوامره، ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فيجازي كلّ واحد على ما أسلف.

ثمّ كرّر الحقّ تعالى الأمر بالتّوجّه إلى الكعبة لعلّة أخرى سيذكرها، فقال ﷻ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي حيثما حللتم فولّوا وجوهكم شطره، وهذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، وقد اختلفوا في حكمة هذا التّكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد لأنّه أوّل ناسخ وقع في الإسلام، وقيل: بل هو منزّل على أحوال، فالأمر الأوّل لمن هو مشاهد الكعبة، والثّاني لمن هو في مكّة غائبًا عنها، والثّالث لمن هو في بقية البلدان. وقيل: الأوّل لمن هو بمكة، والثّاني لمن هو في بقية الأمصار، والثّالث لمن خرج في الأسفار، وقيل: إنّما ذكر ذلك لتعلّقه بما قبله أو بعده من السّياق: فقال أولًا: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، فذكر في هذا المقام إجابته إلى طُلبته، وأمره بالقبلة التي كان يودّ التّوجه إليها ويرضاها. وقال تعالى في الأمر الثّاني: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ فذكر أنّه الحقّ من الله، وارتقاءه المقام الأوّل حيث كان موافقًا لرضا الرّسول ﷺ، فبيّن أنّه الحقّ أيضًا من الله يحبّه ويرتضيه. وذكر في الأمر الثّالث حكمة قطع حجّة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحجّجون باستقبال الرّسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنّه سيُصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة، فيقول تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وإنّما أمرتكم بالتّوجه إلى الكعبة دون الصّخرة لتدفع حجج النّاس، فإنّ اليهود ربّما قالوا: المنعوت في التّوراة قبلته الكعبة، وهذا يستقبل الصّخرة، أو إنّ محمّدًا يخالف ديننا ويستقبل قبلتنا. والمشركون ربما قالوا: يدّعي ملّة إبراهيم ويخالف قبلته، فأمرتكم باستقبال القبلة دفعًا لحجج النّاس، إلا المعاندين منهم فلا ينقطع شغبهم، فإنّهم يقولون: ما تحوّل إلى الكعبة إلا ميلًا إلى دين قومه، وحبًّا لبلده، أو بدا له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم.

س إنّ هذا الرّجل يزعم أنّه على دين إبراهيم، فإن كان توجّهه إلى بيت المقدس على ملّة إبراهيم فلم رجع عنه؟

ج أنّ الله تعالى اختار له التّوجه إلى بيت المقدس أولًا لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربّه تعالى في ذلك، ثمّ صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة فامتثل أمر الله في ذلك أيضًا، فهو ﷺ مطيع لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين، وأمّته تبع له. وقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي فلا تخشوا شُبَهَ الظّلمة المتعنّتين ولا تلتفتوا إلى مطاعنهم فإنّها لا تضرّكم، وأفردوا الخشية لي، فالله تعالى أهل كي يخشى منه. وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطف

على ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي لأتمّ نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشّريعة من جميع وجوهها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما ضلّت عنه الأمم، هديناكم إليه وخصّصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمّة أشرف الأمم وأفضلها، وشريعتها أشرف الشّرائع.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ يذكّر تعالى عباده المؤمنين بما أنعم به عليهم، من بعثة الرّسول سيّدنا محمّد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبيّنات، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي يطهّرهم من رذائل الأخلاق ودنس النّفوس وأفعال الجاهليّة، ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور، فالتّزكية تزكية النّفوس أي الإحسان، وهي علم التّصوّف علم صفاء القلوب، أي هي عبد صفا قلبه فاصطفاه ربّه، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن وأسراره، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي السُّنَّة- الميزان- لتضع الأمور في نصابها، فانتقلت أمّته ببركة رسالته، ويُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق النّاس علمًا، وأبرّهم قلوبًا، وأقلّهم تكلّفًا، وأصدقهم لهجة. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يشمل جميع العلوم والكشف. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴿١٦٤﴾﴾[1] الآية، وذمّ من لم يعرف قدر هذه النّعمة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[2] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: يعني بنعمة الله سيّدنا محمّدًا ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النّعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

وعن مجاهد في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، وعن زيد بن أسلم: أنّ موسى عليه السلام قال: يا ربّ كيف أشكرك؟ قال له ربّه: "تذكرني ولا تنساني، فإن ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني"، وقال الحسن البصري: إنّ الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذّب من كفره. وعن مكحول الأزديّ قال: قلت لابن عمر أرأيت قاتلَ النّفس، وشارب الخمر، والسّارق والزّاني، يذكر الله، وقد قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: إذا ذكر الله هذا، ذكره الله بلعنته حتّى يسكت. وعن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: ذكر الله إيّاكم، أكبر من ذكركم إيّاه. يقول الله تعالى: «وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا، دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا، دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي، أَتَيْتُكَ أُهَرْوِلُ»[4]. قَالَ قَتَادَةُ: فَاللهُ تعالى أَسْرَعُ بِالْمَغْفِرَةِ.

وقوله جلّ جلاله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[5]. وعن أبي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤. (٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٨.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٧٤٠٥، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿ويحذّرُكُمُ الله نفسَه﴾.

(٤) رواه أحمد في مسنده، عن أنس، حديث رقم: ١٢٤٠٥، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: أنس بن مالك رضي الله عنه، الحديث إسناده صحيح.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ مِنْ خَزٍّ لَمْ تَرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا بَعْدَهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ﴾[1] فكفران النّعم يؤدّي إلى شدّة العذاب، من أمراض نفسيّة وعصبيّة... يقول الحقّ ﷻ: يا عبادي اذكروا برّي وإحساني، فقد أتممت عليكم نعمي وآلائي بإسعافكم في تحويل القبلة، كما أتممتها عليكم بأعظم النّعم وأجلّها، وهو إرسال رسولًا منكم يعلّمكم ويتلو عليكم آياتنا الموصلة إلى حضرتنا، ويطهّركم من المساوئ والعيوب، ويعلّمكم الكتاب المشتمل على علم الغيوب ودواء القلوب، ويعلّمكم الحكمة وهي الشّريعة المطهّرة والسّنّة النّبويّة، ويعلّمكم علومًا غيبيّة لم يكن لكم بها علم ولا معرفة، فاذكروني بالطّاعة والإحسان أذكركم بالثّواب ونعيم الجنان. قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَطَاعَ اللهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللهَ، وَإِنْ قَلَّتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَمَنْ عَصَى اللهَ فَقَدْ نَسِيَ اللهَ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ﴾[2].

- وقيل أيضًا في تفسير قوله ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أي فاذكروني بالجنان أذكركم بنعمة الشّهود والعيان، واذكروني بالقلوب أذكركم بكشف الحجب، واذكروني بالتّوحيد والإيمان أذكركم بالدّرجات في الجنان. قال الصّدّيق رضي الله عنه: "كَفَى بالتَّوْحِيْدِ عِبَادَةً، وَكَفَى بالْجَنَّةِ ثَوَابًا" ومعناه: فاذكروني بالشّكر أذكركم بالزّيادة، واذكروني على ظهر الأرض أذكركم في بطنها.
- قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: "رَأَيْتُ أَعْرَابِيًّا جَاءَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فقال: "اللهمَّ فَقَدْ عَجَّتْ إِلَيْكَ الْأَصْوَاتُ بِصُنُوفِ اللُّغَاتِ يَسْأَلُونَكَ الْحَاجَاتِ، وَحَاجَتِي إِلَيْكَ أَنْ تَذْكُرَنِي عَلَى طُولِ الْبِلَا إِذَا نَسِيَنِي أَهْلُ الدُّنْيَا"[3]. ومعناه: اُذكروني في الدّنيا أذكركم في العقبى، واذكروني بالطّاعات أذكركم بالمعافاة، يعني يحييه حياة طيّبة، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[4] ﴿واذكروني في الخلاء والملأ أذكركم في أفضل الملأ﴾[5].
- وعن أبي الدّرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ﴾[6].
- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَنْبِئْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[7].
- وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، قَالَ: "سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: ﴿أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[8] إذ إنّ أعظم العبادات ذكر الله. وعن رسول الله ﷺ، قال: ﴿مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِرَجُلٍ مُغَيَّبٍ فِي نُورِ الْعَرْشِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، مَلَكٌ؟ قِيلَ: لَا، قُلْتُ: نَبِيٌّ؟ قِيلَ: لَا، قُلْتُ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ كَانَ فِي الدُّنْيَا لِسَانُهُ رَطِبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ، وَقَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالْمَسَاجِدِ، وَلَمْ يَسْتَسِبَّ لِوَالِدَيْهِ قَطُّ﴾[9].
- قيل لِأَبِي الدَّرْدَاءِ: إِنَّ أَبَا سَعْدِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَعْتَقَ مِائَةَ مُحَرَّرٍ قَالَ: "إِنَّ مِائَةَ مُحَرَّرٍ مِنْ مَالِ رَجُلٍ لَكَثِيرٌ، وَإِنْ شِئْتَ

(١) رواه أحمد في مسنده، عن عمران بن حصين، حديث رقم: ١٩٩٣٤، مسند: البصريين، مسند: حديث عمران بن حصين، الحديث إسناده صحيح.
(٢) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن ابن أبي عمران، كتاب: محبة الله تعالى، باب: الفصل الثاني في ذكر آثار وأخبار وردت في ذكر الله تعالى، حديث رقم: ٦٧٧، وهو حسن.
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية، عن سفيان بن عيينة، كتاب: ذكر طوائف من جماهير النساك والعباد، باب: سفيان بن عيينة ومنهم الإمام الأمين.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٥) ذكره الطّبرانيّ في تفسير القرآن العظيم، باب: ١٥٢.
(٦) رواه الحاكم في المستدرك، عن أبي الدرداء، حديث رقم: ١٨٢٤، كتاب وباب: الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح، الحديث إسناده صحيح.
(٧) رواه الحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن بسر، حديث رقم: ١٨٢٢، كتاب وباب: الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح، الحديث إسناده صحيح.
(٨) رواه إبن حبّان في صحيحه، عن معاذ بن جبل، حديث رقم: ٨١٨، كتاب: الأذكار، باب: ذكر نفي المرء عن داره المبيت والعشاء للشيطان...، الحديث إسناده صحيح.
(٩) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء، عن أبي المُخارق، حديث رقم: ٩٥، باب: وصف الحسن البصري لأولياء الله.

أَنْبَأْتُكَ بِمَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ إِيمَانٌ مَلْزُومٌ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى"[1]. وعَنْه ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: ((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَأَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟)) قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((ذِكْرُ اللهِ تعالى))[2].

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ((إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سِقَالَةً، وَإِنَّ سِقَالَةَ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ)). قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: ((وَلَوْ أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّى يَنْقَطِعَ))[3].

- وعن رسول الله ﷺ، قال: ((مَنْ عَجَزَ مِنْكُمْ عَنِ اللَّيْلِ أَنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَجَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُجَاهِدَهُ فَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ))[4].

وعَنْ مُعَاذٍ ﷺ، قَالَ: "مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ"، قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: "وَلَا، إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[5]، وعنه ﷺ، قال: ((أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: قَلْبٌ شَاكِرٌ، وَلِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَبَدَنٌ عَلَى الْبَلَاءِ صَابِرٌ، وَزَوْجَةٌ لَا تَبْغِيهِ خَوْنًا فِي نَفْسِهَا وَلَا مَالِهِ))[6].

وقال ﷺ: ((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ))[7]، وقال ﷺ أيضًا: ((مَا مِنْ يَوْمٍ وَلَا لَيْلَةٍ إِلَّا للهِ تعالى مَنٌّ يَمُنُّ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَصَدَقَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ))[8]، وقال ﷺ: ((لَوْ أَنَّ رَجُلًا فِي حِجْرِهِ دَرَاهِمُ يُقَسِّمُهَا، وَآخَرُ يُذْكَرُ اللهَ، كَانَ الذَّاكِرُ للهِ أَفْضَلَ))[9]، كما قال ﷺ: ((لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا))[10].

- ويقال ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ على عظيم المنّة عليكم بأن قلت: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.
- ويقال الشّكر من قبيل الذّكر، وقوله ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ النّهي عن الكفران أمر بالشّكر، والمراد بالشّكر الذكر.

ويقال: فَاذْكُرُونِي بالتذلّل أَذْكُرْكُمْ بالتفضّل. فَاذْكُرُونِي بالانكسار أَذْكُرْكُمْ بالمبارّ. فَاذْكُرُونِي باللّسان أَذْكُرْكُمْ بالجنان. فَاذْكُرُونِي بقلوبكم أَذْكُرْكُمْ بتحقيق مطلوبكم. فَاذْكُرُونِي على الباب من حيث الخدمة أَذْكُرْكُمْ بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النّعمة. فَاذْكُرُونِي بتصفية السّر أَذْكُرْكُمْ بتوفية البرّ. فَاذْكُرُونِي بالجهد والعناء أَذْكُرْكُمْ بالجود والعطاء.

- فَاذْكُرُونِي بوصف السّلامة أَذْكُرْكُمْ يوم القيامة يوم لا تنفع النّدامة. فَاذْكُرُونِي بالرّهبة أَذْكُرْكُمْ بتحقيق الرّغبة.

قال الحقّ تعالى: واشكروا لي ما أوليتكم من إحساني وبرّي بأن تنسبوها لي لا لغيري، ولا تجحدوا إحساني فأسلبكم ما خوّلتكم من إنعامي.

---

(١) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن سالم بن أبي الجعد، حديث رقم: ٦١٨، كتاب: محبة الله تعالى، باب: فصل في إدامة ذكر الله تعالى.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك، عن أبي الدرداء، حديث رقم: ١٨٢٥، كتاب وباب: الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح، الحديث إسناده صحيح.
(٣) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن عبد الله بن عمر، حديث رقم: ٥١٩، كتاب: محبة الله تعالى، باب: فصل في إدامة ذكر الله تعالى.
(٤) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٥٠٥، كتاب: محبة الله تعالى، باب: معاني المحبة، الحديث موقوف.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥. والحديث رواه أبو نعيم في الحلية، عن معاذ، كتاب: المهاجرون من الصحابة، باب: معاذ بن جبل ومنهم أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل.
(٦) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٤١١٥، كتاب وباب: تعديد نعم الله تعالى، وما يجب من شكرها.
(٧) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي موسى، حديث رقم: ٦٤٠٧، كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله تعالى.
(٨) رواه الطّبرانيّ في الدعاء، عن أبي الدرداء، حديث رقم: ١٨٥٧، باب: ما جاء في فضل ذكر الله تعالى.
(٩) رواه الطّبرانيّ في المعجم الأوسط، عن أبي موسى، حديث رقم: ٥٩٦٩، كتاب: الميم، باب: من اسمه محمّد، الحديث حسن.
(١٠) رواه الطّبرانيّ في المعجم الكبير، عن معاذ بن جبل، حديث رقم: ١٨٢، كتاب: الميم، باب: جبير بن نفير، عن معاذ بن جبل، الحديث حسن.

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. لا يظنّ العبد أنّه يستطيع الهرب من قدرة الله بالأسباب التي يفعلها؛ فالله تعالى قادر عليه على كلّ حال، وفي كلّ مكان، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢. قوله ﷻ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾.

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ، ولا يقع لمخلوق عليك ظِلٌّ، ولا تصل إليك بالسّوءِ يَدٌ، فحيثما كنتَ وأينما كنتَ وكيفما كنت كن لَنَا وكُن مِنّا، فإنَّ من انقطع إلينا لا يتطرّق إليه حدثان.

٣. قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾.إذا كانوا محوًا عن كونهم رسومًا تجري عليهم أحكامنا، فأنّى بالخشية منهم!؟

٤. قوله ﷻ: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إتمام النّعمة إضافة الكشف إلى اللّطف، فإنّ من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحقّ وجوده.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾

- عدم تعلّق المسلم بمكان أو جهة **(حتّى ولو كانت الكعبة)** أو سبب **(حتّى ولو كانت الرّقية الشّرعيّة)** أو مخلوق **(حتّى أقرب النّاس اليه كوالد أو والدة)** وأن لا يخشى مخلوقًا، فما عليه الا أن يلتزم أمر الله تعالى وكلّ النّتائج يرجوها من الله وحده. نتعاطى الأسباب امتثالًا لأمر الله تعالى من غير التّعلّق بها أو الاعتماد عليها بل التّعَلُّقُ بِرَبِّ الأَرْباب وحده.
- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۖ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] إنّ هذه الآية تُمَثِّلُ صورةً لإنسانٍ غريبٍ وَصَلَ إلى قريةٍ وهو لا يملكُ مالًا ولا زادًا ولا مَلْجَأ فَهُوَ مُحْتاجٌ إلى من يُساعدُهُ ليؤمّن ذلك كُلَّهُ. فَرَأى عَبْدًا مَملوكًا لا يَمْلِكُ شَيْئًا ولا يَقْدِرُ أن يُقَدِّمَ يَدَ المُساعَدَةِ لأَحَدٍ بِسَبَبِ ضَعْفِهِ وفَقْرِهِ وعَجْزِهِ. ثمّ رَأى شَخْصًا قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بالمالِ والقُوَّةِ والقُدْرَةِ والسُّلْطَةِ والعُزْوَةِ... فَهَلْ يُعقَلُ أن يَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بذاكَ العَبْدِ المَملوكِ العاجِزِ، أم يَتَعَلَّقُ قَلْبُهُ بِصاحِبِ المالِ والقُوَّةِ والسُّلْطَةِ؟ مِنَ الطّبيعيِّ أن يَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بصاحِبِ القُوَّةِ والسُّلْطَةِ والمُلْكِ، لأَنَّ العَقْلَ السّليمَ لا بُدَّ أن يَخْتارَهُ، ولله المَثَلُ الأعلى، فالله تعالى يَضْرِبُ لنا الأَمْثالَ. فاجعل تَعَلُّقَكَ بالله وحدَهُ ولا تَتَّكِل على الأسباب مَهما كانت عَظيمةً قَوِيَّةً حَسَبَ الظاهر، فهذه الأسبابُ جمعاءُ لا تستطيعُ أن تنفعَكَ أو تَضُرَّكَ لأَنَّهُ تعالى وحدَهُ هُوَ الضّارُّ النّافِعُ. وإذا فَهِمْنا مَعاني هَذِهِ الآيَةِ وهذا الحديث اسْتَطَعْنا أن نُعالِجَ مَرَضَ الفوبيا والخَوْفِ.

س: كيف لمؤمنٍ أن يخافَ وقد وَعَدَهُ الله تعالى بالأَمنِ وَالأَمانِ؟

ج: هذا المعنى قَصَدَهُ النّبيّ ﷺ عِنْدَما كانَ مَعَ أبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنه في الغار يوم الهِجْرَةِ فقالَ لَهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[2] وهذا ما قالَهُ أَصْحَابُ موسى عليه السلام عِنْدَما لَحِقَهُم فِرْعَوْنُ وجُنودُهُ، فكانَ البَحْرُ مِن أَمامِهِم وفِرْعَوْنُ وجُنودُهُ مِنَ خَلْفِهِم وقالوا: إنّا لَمُدْرَكُون، فأجابَهُمْ موسى بِثِقَةٍ وَيقينٍ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[3].

(١) سورة النحل، الآية: ٧٥. (٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠. (٣) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.

س: وَكَيْفَ يَكون الله معنا؟

ج: يَكون الله مَعَنا إذا كُنّا مَعَهُ واعْلَمْ أَنَّكَ إذا كُنْتَ مع الله قَلْبًا وقالِبًا فَهُوَ ﷻ مَعَكَ لا مُحالَةَ، قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾[1] ﴿فَاذْكُروني أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لي وَلا تَكْفُرونِ﴾

من أسماء الله الحسنى: القادر (القدير)

شرح الأسماء: القادر (القدير)

القادر: من له عموم القدرة، وهي صفة يتأتّى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق الإرادة.

هو المتمكّن من الفعل بلا معالجة، ولا واسطة، الذي لا يلحقه عجز فيما يريد إنفاذه.

المقتدر: وهو أبلغ من القادر. وهو الاستيلاء على كلّ من أعطاه حظًّا من القدرة.

التعلّق باسم الله (القادر):

استمداد قدرته عن إرادة الفعل في كلّ وقت وحين، حتّى تكون به وله في كلّ شيء.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- سابق اليوم إلى الخيرات، الصّلاة في أوّل وقتها وكن أوّل من يصل من قطعه، وأوّل من يصلح وأوّل من يسامح، وأوّل من يؤدّي فرض الحجّ؛ وأوّل من ينصر دينه وأوّل من ينشر الأخلاق المحمّديّة وأوّل من ينشر الصّلاة على خير البريّة ﷺ، فإنّ للسّابقين منزلة ليست لغيرهم، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ﴾.
- حافظ على أذكار الصّباح والمساء وأدبار الصّلوات، وعلّمها غيرك، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

في الأخلاق والآداب

التخلّق بأسماء الله: القادر - القدير

أن لا تعجز عن تحقيق شيء ممّا تريده فيه، على قدر جهدك واستطاعتك، وأن تبذل في طاعته غاية قدرتك.

من الأخلاق المحمّديّة: الحبّ (حبّ الله تعالى وحبّ رسوله)

هذا الخُلُقُ مُستَمَدٌّ مِن اسمِ الله تعالى "**الوَدود**".

والوِدادُ هو الحُبُّ غيرُ المَشروطِ وغيرُ المَربوطِ بأمرٍ يَزولُ بِزوالِهِ، كَحُبِّ الأمِّ لِوَلَدِها؛ وَأَعظَمُ مِنه حُبُّ النّبيِّ ﷺ لأحبابِهِ خاصّةً ولأُمَّتِهِ عامَّةً؛ وَأعظَمُ منهُ حُبُّ اللهِ تعالى لِعِبادِهِ الصّالحينَ خاصّةً وَلِعِبادِهِ المؤمنينَ عامّة. وَالتَّخَلُّقُ به

(١) سورة محمد، الآية: ٧.

هو بأن تَتَخَلَّقَ بِالأخلاق المحمّديّةِ فهي الّتي تَزيدُك حُبًّا للهِ، فَتُحِبَّ جَميعَ النّاسِ وَتَسعى في إسعادِهم في الدُّنيا والآخرة.

- الحُبُّ هو أن تميلَ بِكُلِّكَ إلى المحبوبِ، ثمّ تفضّلُه على نفسِك وَروحِكَ ومالِكَ، وتُوافِقُهُ سرّاً وَجَهراً، وتعترِفُ بِتقصيرِكَ في حبِّه. والحبُّ يُعمي ويُصِمُّ فلا يرى المُحبُّ أو يَسمعُ شيئًا أمامَه.
- والمحبُّ ليسَ مَن يرجو مِن محبوبِه عِوَضًا وَيَطلُبُ مِنه غَرَضًا، بل المُحِبُّ مَن يبذلُ لكَ، وليس مَن تَبذلُ لَه. قال رسولُ الله ﷺ: «أَحِبّوا اللهَ لِما يَغْذوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّوني بِحُبِّ اللهِ»[1].
- والمُحِبُّ هو الّذي يكثرُ مِن ذكرِ الحبيبِ كما قال تعالى ﴿... وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً...﴾ وقال سبحانَه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.
- وأخبرَنا النَّبيُّ ﷺ عن الدّرجةِ الكُبرى لِمَن يُعَلِّمُ الحُبّ، فَلَو ظَلَلْتَ تَبحَثُ عن أعلى المقاماتِ وعَنِ الطّريقِ الّذي يُوصِلُكَ إلى غايَةِ الغاياتِ، فلا تُتعِبْ نفسَكَ فَالكُلُّ شاهِدٌ ويُشيرُ إلى الحبّ.
- بِالحُبِّ تنالُ أسمى الدّرجات وهي رضى الرّبّ؛ فالمُحِبُّ يرضى مِن محبوبِهِ كُلَّ شَيءٍ ولا يَرى في فِعلِهِ عيباً. فَتُحِبُّ كُلَّ نِعْمَةٍ أعطاكَ اللهُ إيّاها لأنّها هَدِيَّةٌ مِمَّن تُحِبُّ. ولا تَتَمنّى ما أعطى اللهُ غيرَكَ فإنّ المُحِبَّ لا يَنظُرُ إلى العطيَّةِ أو إلى الهَديّةِ ولا يَتَعلَّقُ قَلبُهُ بِها بل يَنظُرُ إلى المُعطي المَحبوب ولا يُبَدِّلُ هديّتَهُ وَعَطِيَّتَهُ بِشيءٍ لأنّها عطيّةٌ مِن حَبيبِه.
- فَاحرِصْ على الحُبِّ وعلى أن تُعَلِّمَ غيرَكَ أَهَمَّ وَصفٍ وُصِفَ به نبيُّكَ الّذي عُرِفَ بِأَنَّهُ حبيبُ الله ﷺ.
- كي تَكسبَ حُبَّ الله تعالى عليك بالتّضحيةِ. فَعَلامَةُ الحُبِّ أن تَترُكَ ما تُحبُّ لأجلِ ما يُحبُّه محبوبُك؟... كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾[2]. أي اتّبعوا الأخلاق المُحمَّديّة، أخلاقَ نبيّك ﷺ. فإنّ طبّقتَها، أي اتّبعتَه، عبر بِرِّكَ لِوالدَيْكَ وعَفوِكَ عَمَّن ظَلَمَكَ، وصبرِك على المصاعبِ وحسنِ ظنّكَ بالله وعبادِه، كانت هذه علامةَ صدقِكَ. فالتّأسّي بالأخلاق المُحمَّديّة أقصرُ الطّرقِ لنيلِ حبّ الله تعالى ورسوله ﷺ.

الشكر لله سببٌ للسعادة، والإعراض عنه سببٌ للهمّ والغمّ.

غموم القلب من أحزان وهموم، لا تخفيها أموال ولا مناصب، فالهموم والغموم والأحزان لها تأثير كبير على صحّة الإنسان، وحالته النّفسيّة. قالوا الهمّ نصف الهرم، والغضب يتحرّك من داخل الجسد إلى خارجه، والحزن من الخارج إلى الدّاخل، ولذلك يقتل الحزن ولا يقتل الغضب، فينبغي الابتعاد عن أسباب الغموم وهمومها، من رؤية ما عند النّاس من زينة الدّنيا وزخارفها. قال أَبُو الدَّرْدَاء رضي الله عنه: «لَا تُتْبِعْ بَصَرَكَ كُلَّ مَا تَرَى فِي النَّاسِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُتْبِعْ بَصَرَهُ كُلَّ مَا يَرَى فِي النَّاسِ يَطُلْ حُزْنُهُ وَلَا يَشْفِ غَيْظَهُ»[3].

وقيل: سبب الهموم والغموم، الإعراض عن ذكر الله والإقبال على الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[4]

وقال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا

(١) رواه التّرمذيّ في سننه، عن ابن عبّاس. رقم الحديث: ٣٧٨٩. كتاب: أبواب المناقب. باب: مناقب أهل بيت النّبيّ ﷺ.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس، عن أبي الدرداء، حديث رقم: ١٢٠، باب: الحذر من الناس اتّقاء شرّهم.
(٤) سورة طه، الآية: ١٢٤.

شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))[١] فمن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيرِه، وكَلَهُ الله إلى من استعان به فصار مخذولًا، والواجب عند وقوع المقدور التّسليم لأمر الله، وترك الاعتراض على الله، والإعراض عن الالتفات إلى ما فات.

الحكمة: إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك. وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه.

في السّيرة والشّمائل

عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: سألت النّبيّ ﷺ: "أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: ((الصَّلاة عَلَى وَقْتِهَا))، قَالَ: ثمّ أَيُّ؟ قَالَ: ((ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ))قَالَ: ثمّ أَيُّ؟ قَالَ: ((الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ))[٢].

فأعمال البرّ والخير كثيرة، ولكنّ النّبيّ ﷺ كان يوجّه أصحابه كلٌّ إلى وجهة يتقبّلها الله تعالى منه. فالصّلاة على وقتها من أعظم القربات، ثمّ أتبعها ببرّ الوالدين اللّذيْن أحسنا إلى ولديْهما إحسانًا استمرّ في حال ضعفه وقوّته، ثمّ ذكر فضيلة الجهاد حتّى تكون كلمة الله هي العليا، ولكلّ عبد وجهة يستبق فيها الخيرات.

في السّلوك

الإشارة: من حكمة المدبّر الحكيم أن دبّر ملكه العظيم، ووجّه كلّ فرقة بوجهة من مصالح عباده، أفناه فيها وولّاه إيّاها. فقوم اختصّهم لمحبّته واصطفاهم لحضرته وهم العارفون، وقوم أقامهم لخدمته وأفناهم في عبادته وهم العبّاد والزّهاد، وقوم أقامهم لحمل شريعته وتمهيد دينه وهم العلماء العاملون، وقوم أقامهم لحفظ كتابه رسمًا وتلاوة وتفهّمًا وهم القرّاء والمفسّرون، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣]، وقوم أقامهم لتسكين الفتن ودفع المظالم والمحن وهم الحكّام ومَن يستعان بهم في تلك الوجهة، وقوم أقامهم لحفظ نظام الحكمة وهم القائمون بالأسباب الشّرعيّة على اختلاف أنواعها وتعدّد فروعها، وقوم أعدّهم لظهور حلمه وعفوه فيهم وهم أهل المعاصي والذّنوب، وقوم أعدّهم للانتقام وظهور اسمه القهّار وهم أنواع الكفّار، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[٤].

فكلّ وجهة من هؤلاء توجّهت لحقّ شرعيّ أقامتها القدرة فيه، وحَكم بها القضاء والقدر، إلا أنّ القسمين الأخيرين لا تقرّرهما الشّريعة. فلو حسنت المقاصد لكان الكلّ عُمّالًا لله، فيقال لهم: اسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، بتحسين المقاصد والنّيّات، وبادروا إلى الطّاعات قبل هجوم هادم اللّذات، أينما تكونوا يجمعكم للحساب، وتُعاينوا جزاء ما أسلفتم من عذاب أو ثواب، ومن حيث خرجت أيّها العارف فولّ وجهتك وكلّيّتك لمسجد الحضرة باستعمال الفكرة والنّظرة، فإنّها حقّ وما سواها باطل، كما قال الشاعر لبيد بن ربيعة:

أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ وَكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ

وحيثما كنتم أيّها العارفون فولّوا وجوهكم إلى قبلة تلك الحضرة، واعبدوا ربّكم بعبادة الفكرة، فإنّها صلاة القلوب، ومفتاح ميادين الغيوب، وفي ذلك يقول القائل:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٦٦٤، كتاب: القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبد الله، حديث رقم: ٥٢٧، كتاب: مواقيت الصّلاة، باب: فضل الصّلاة لوقتها.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩. (٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

يَا قِبْلَتِي فِي صَلاتِي إِذَا وقَفْتُ أُصَلِّي
جَمَالُكم نُصْبَ عَيْنِي إليهِ وَجَّهْتُ كُلِّي

فإذا تحقّقتم بهذه الحضرة، وتحصّنتم بحصن الشّهود والنّظرة، انقطع عنكم حجج خصيم النّفس والجنس، وتنزّهتم في رياض القرب والأنس، إلا الخواطر التي تحوم على القلوب، فلا تقدح في مشاهدة الغيوب، فلا تخافوا غيري، ولا تتوجّه همّتكم إلا لإحساني وبرّي فإنّي أتمّ عليكم نعمتي، وأرشدكم إلى كمال معرفتي، وأتحفكم بنصري ومعونتي.

الإشارة: كما أنعم الله على الأمّة المحمّديّة بأن بعث فيهم رسولًا منهم يعلّمهم الشّريعة النّبويّة، ويطهّرهم من شهود الغيريّة، ويعلّمهم العلوم اللّدنّيّة، كذلك منَّ الله تعالى على عباده من هذه الأمّة في كلّ زمان، ببعث شيوخ التّربية يطهّرون النّاس من العيوب، ويدخلونهم حضرة الغيوب، ويطلعونهم على شهود القدرة الأزليّة والحكمة الإلهيّة، ويعلّمونهم من غرائب العلوم، ويفتحون لهم مخازن الفهوم، فَيَطَّلعون على السّرّ المصون، ويعلمون ما لم يكونوا يعلمون، فيقول لهم الحقّ ﷻ: أذكروني بأرواحكم وأسراركم، أذكركم بالغيبة عن رؤية أشباحكم، أذكروني بالفكرة والنّظرة أمتّعكم بدوام شهود الحضرة، واشكروا لي آلائي وبرّي، ولا تكفروا بالرّكون إلى غيري، فإنّي أسلبكم من مزيد معونتي ونصري..

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1]. يحثّ الحديث على المبادرة بالأعمال الصّالحة في أوقات الفتن، إذ إنّ الفتن إذا وقعت تشغل الناس عن الطاعات وتغيّر أحوالهم، فتُبدِل قلوبهم وتُضعِف ثباتهم. والفتن على نوعين، منها ما يؤثّر في القلب فيصبح المؤمن في حالة شكّ أو ارتياب، فيؤدّي ذلك إلى تعطيل العمل أو تقبّله بنية غير صحيحة. ومن أخطر هذه الفتن الكلمات الخبيثة التي يقذفها الشيطان على لسان بعض الأفراد ليبثّوا الفتنة في قلوب الضعفاء. هذه الكلمات قد تقال بجد أو على سبيل المزاح، لكنّها تؤثّر في النفوس الضعيفة وتفتتن بها. القلوب شديدة التقلّب، إذا لم تلتزم بالحقّ وتظلّ متطلّعة للضلال، فإنّها تصبح قابلة لأيّ أثر مفسد. لذلك، يجب على المسلم أن يكون في أقصى درجات الحذر واليقظة في المحافظة على دينه وإيمانه، وأن يتعهّد قلبه بالذكر والتقوى ليحميه من الفتن.

في الأدعية والأذكار

- قل "ربِّ زدني تزكية وعلمًا وحكمة"، لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[2].
- «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»[3].

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١١٨، كتاب: الإيمان، باب: الحث على المبادرة بالأعمال قبل الفتن.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥١.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن زيد بن أرقم، حديث رقم: ٢٧٢٢، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوّذ من شرّ ما عمل ومن شرّ ما لم يعمل.